خلق الانسان في ميزان القرآن

بقلم الدكتور :
محمد أحمد العزب

خلق (الانسان) فى ميزان القرآن :

وحين يتمرد (الانسان) على خالقه ، وهو ذرة من ذرات كون معجزة يموج بملايين الذرات والجزئيات ، يسجل القرآن الكريم عليه هذا التمرد الطائش بكل ألوانه وزواياه :

فمن تمرد نفعى يتمثل فى ضراعة الانسان في الشدة وتمرده في الرخاء ، ومسرته فى العطاء وكفره فى المنع ..

إلى تمرد نزق يلوح فى بطر الانسان فى النعمة ويأسه فى الحرمان

الى تمرد مغلق يتجسد فى طمس الانسان لبصيرة الوعى فيه بكل ما حوله من مفاتن الطبيعة وآلاء الوجود ..

الى تمرد جاهل يتبدى فى عجز الانسان عن الاحاطة بكلية الظاهرة الحيوية ، وانحصاره فى واقع التفكير المادى الذى يعيشه دون الاقتدار على التحليق المطلوب الى ما وراء هذا الواقع المادى .

ولكن القرآن الكريم لا يكتفى فى حديثه عن الانسان متمرداً بلفظ (الانسان) بمجرد تسجيل ظواهر التمرد الانسانى ، وانما يحاول أن يقتلع جذور هذه الظواهر ، حتى يعود بالانسان الى أوج انسانيته الصافية المرادة لخالقها ، فيلفته فى مواطن كثيرة الى سذاجة عناصره ، طينية كانت أم نطفية ، فهو فى اطار العنصر الطينى قبضة من الأرض التى تدوسها قدماه ، منها خلق ، وفيها يعاد ، ومنها يخلق تارة أخرى .. وهو فى إطار العنصر النطفى ، كائن متخلف من مني يمنى .. فعلام التمرد ؟ ولماذا الانفلات ؟!!!.

الخالقية والمخلوقية :

إن حديث القرآن عن الانسان من هذه الوجهة لا يعنى تحقيره أو تشويه صورته ، وإن بدا حديثاً قارساً بعض الشىء ، ولافحاً بعض الشىء .. لأن لفت الانسان الى طبيعة عناصره الأولية الساذجة ، طينية ونطفية ، يتم فى القرآن الكريم من خلال الحديث عن (الخالقية) و (المخلوقية) ، وما يجب أن يربط بينهما من علاقات إقرار المخلوق للخالق ، وإذعان (الانسان) (لله) .. لا أن يتمرد هذا الانسان على قضية القضاء والقدر باليأس والكفر والبطر والتجديف ، أو على قضية (المخلوقية لله) بالمواجهة والنفي والمصادرة والتكذيب .. فان هو فعل في لوثة نسيانه أو اغتراره .. كان من حق كلمات الله الخالق أن تقفه على حجمه الحقيقي ، وأن تذكره بأنه لن يستطيع أن يكون سوى طين من الطين ، أو علق متخثر يمكن أن يجهض على قارعة الطريق :

«ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون» (الحجر: ٢٦) .

«ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين» . (المؤمنون : ١٢) .

«الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» (السجدة : ٧) .

«خلق الانسان من صلصال كالفخار» (الرحمن : ١٤) .

«خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين» (النحل ٤) .

«أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين» (يس : ٧٧) .

«إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً» (الانسان : ٢) .

«فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . انه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر» (الطارق : ٥ ــ ١٠) .

«خلق الانسان من علق» (العلق : ٢) .

والمتأمل لآيات الخلق من طين يلاحظ أنها وردت فى سياق التدليل على قدرة الخالق وروعته ، فهي محوطة بحس الاعجاز والابداع ... ولكن سياق الآيات الأخرى الدالة على الخلق من نطفة يوحي بحس التهوين من كبرياء هذا المخلوق النزق .. إن في الأولى انتصافاً لكرامة الانسان السوي ، وفي الثانية كبحاً لجماح هذا الانسان حين يفقد سواءه ، والسياق القرآني العظيم يضع كلا من هاتين القضيتين موضعه الموحي المثير ، فهو في آيات الخلق من طين يقارن بين طبيعة الانسان وطبيعة الشيطان ، ويدلل بأن هذا الخلق وإن كان من عنصر أرضي متواضع إلا أنه آية اعجازه وروعة إتقانه ، يؤكد بأن الذي استطاع أن يخلق هذا الكائن العظيم من هذا العنصر المتواضع قادر على أن يحييه بعد الموت ، ويبعثه من جديد ، وينشئه النشأة الأخرى ... ولكنه في آيات الخلق من نطفة يتوجه الى الانسان نفسه أساساً

بالخطاب والتقريع ، لافتاً له الى طبيعة خلقه الساذج ، والى غرور جماحه إذا حاول أن ينصب من نفسه إلهاً على الأرض ، والى فقدانه ــ بالموت ــ كل حول إذا استطاع من خلال الحياة أن يحتاز بعض حول من هنا أو بعض جاه من هناك .

تسجيل القرآن لظاهرة ضعف الانسان :

وهكذا يلوح حدب النص القرآني المعجز على قضية الضعف في انسان هذه الأرض ، وتجسيده لزوايا هذا الضعف ليس لمجرد تسجيل هذه الظاهرة وانما لمحاولة اقتلاع النوازع الهابطة ، واضاءة الوجدان الانساني المسلم بفضيلة التواضع ، وحكمة الوعي ، وبصيرة الالتزام .

إن انسانية الانسان رفعته الى أوج أعلى من الجماد الذي لا يحس والملاك الذي لا يعاني ، فليس يعقل أن تكون فضيلته هي وسيلة الازراء به .. أي ان القران الكريم لا يطعن الانسان بقضية طينيته أو نطفيته ، فهو من هذه الزاوية نفسها قد كرمه ، وأعطاه حس الامتلاء بهذه الطبيعة والاعتزاز بانتمائه اليها .. ومن هنا كان اصرار الرسل دائما على بشريتهم في وجه من حاولوا تنزيههم عنها ، لأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا على يقين جازم بأن بشريتهم الحاكمة والمحكومة كذلك ، ترتفع بهم صعداً الى معارج العظمة والجلال .

أما إذا فقد ــ الانسان ــ رشاده في مواجهة خالقه ، فليس يشفع له عنصر طيني أو سماوي .. نطفي أو أثيري .. فالكل حينذاك في حضرة البطش الالهي العادل سواء .

إن القران الكريم يلمس في الانسان مناطق اثارة غنية ، بكلمات موجزة تضيء لآلاف المسافات :

«أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً» (مريم : ٦٧) .

إن التعبير القرآني : (أولا يذكر الانسان) يفيض إيحاء وتعاطفاً وحباً بلا حدود ، إنه كأنما هو يستعطفه ، ويترضاه ، ويستعتبه .. وكم في القرآن العظيم من كنوز .

والذين يحاولون مصادرة المنطق القرآني ــ تحت زعم أن الخالق يستطيع تدمير ما خلق إذا ند بغير حاجة الى ترشيد أو تذكير ــ لا يفهمون طبيعة المنطق ولا طبيعة الخلق .. لأن الذي خلق لم يخلق الحياة والانسان والكون هكذا عبثاً ، وإنما لحكمة عالية وغاية راشدة ، فكيف يقضي بالتدمير على ما خلق ومن خلق لأن عصياناً هنا قد حدث ، أو لأن افتياتاً هناك قد أثير ؟

الانسان بعض الظاهرة :

هذا شيء .. والشيء الآخر ان الانسان بعض الظاهرة المخلوقة وليس كل الظاهرة ، فكيف يرتضي العدل الخالق اهدار الكل بجريرة البعض ؟ إن الانسان ليس هو الطبيعة ، وليس هو الكون ، وليس هو الحياة ، ولكنه مخلوق من هذه المخلوقات العظيمة التي تحمل في ملامحها عظمة الخالق وروعة الابداع ، فاذا انحرف عن الجادة لرغب أو لرهب ، واذا شوه فطرة الخلق فجار في موطن العدل ، أو خبط في موطن التقدير ، فان السماء والأرض لن يزولا لهذا الخبط والتشويه .. كل ما هنالك أنه مطالب بتأمل قضيته مع خالقه ، وبتأمل المسافة الفاصلة بين كائن طيني العناصر نطفي التخليق ، وبين خالق متعال عن شبهة العناصر أو مرحلية التخليق .. فان هو فعل كان محكوماً بالضرورة بعودته المذعنة الى رحائب الطاعة والاقرار وتواضع الحركة .

الملاحقة بالتذكير والترشيد :

شيء ثالث يتعلق بهذه القضية الخطيرة .. هو أنه مع التسليم بكون الكون مخلوقاً من أجل الانسان .. ينبغي أن ننزه الخالق عن تدمير الجانب العاقل في هذه الوحدة المتلاحمة .. بمعنى أن الانسان هو الجانب المفكر بالعقل في الكون ، وليس الكون سوى إطار مادي يحتوي هذا المفكر العاقل .. فاذا جنح الانسان ولاحقه الخالق بالمحو والتدمير .. كان بقاء الكون بعد ذلك بقاء مجوفاً بلا مضمون .. أما إذا جنح الانسان ولاحقه الخالق بالتذكير والترشيد .. كان في (عقل) هذا الكائن إمكان الترقي الى أوج هذا الفعل الالهي .. ضرورة الركوع على أعتابه في ندم لاذ .. واستغفار عميق عميق !!

وهكذا يلوح أن طينية الانسان هي مجده ، وأن نطفيته لا تغض من امتلائه ، وأن حتمية بقاء النوع الانساني صادرة عن منطق إلهي يراعي حكمة الخالق في الخلق .. وعدالة الحاكم في الحكم .. وجدوى البقاء في البقاء .. وتمضي بعد ذلك الحياة وفق مشيئة عليا تضع عن الانسان وزر مواجهة الوجود الشامل ، بكل ما ينطوي عليه هذا الوجود الشامل من تراحب وتراكب واشتباك !!

التزام الانسان في منطق القرآن :

ويصور القرآن الكريم دعوته الى (التزام الانسان) تصويرا معجزا وشاملا معا .. ويضع أساس هذا الالتزام في صيغة رفيعة تتواءم مع طبيعة الموقف الانساني ولا تند عن طاقة الاحتمال في هذا الكائن البشري المحدود .

فيضع القرآن الكريم الانسان أمام مسؤوليته .

ويضعه أمام حرية اختياره .

ويضعه أمام نفسه .

ويضعه أمام ضعفه واقتدار خالقه .

وبهذا تتكامل عناصر الالتزام الانساني ، ويلوح الانسان كائناً يمتلك أن يكون مسؤولا وحرا وكابحاً لزمام نفسه وموصول الصلة بمصدره الأعلى في السماء .

فأمام مسؤوليته يحس الانسان بأنه صاحب رسالة وليس موجودا بالضرورة .. وأمام حرية الاختيار يحس الانسان بأنه قادر على التعالي والهبوط .. وأمام نفسه يحس الانسان بأنه صائر بملء ارادته الى الكون أو الى الفساد .. وأمام ضعفه واقتدار القوة الخالقة يحس الانسان بأنه ليس وحده في غابة الوجود الموحشة وأن السماء ترعى خطواته على الأرض .

● يضع القرآن الكريم الانسان أمام مسؤوليته ، ويضعه أمام حرية اختياره ، ويضعه أمام نفسه ، ويضعه أمام ضعفه واقتدار خالقه ..

● الالتزام هو الحرية المنضبطة بقوانينها الذاتية النابعة من قوى الذات المسلمة ، وليس من قوى القهر الخارجي الوافدة ..

● الحرية مسؤولية ، والمسؤولية حرية ، وحيث تنعدم الأولى تنعدم الثانية ..

المسؤولية تكريم والتزام :

ومسؤولية الانسان تعني تكريم الانسان وليس قهر ارادته .. لأن الانسان المسؤول هو بالضرورة الانسان الحر ، ومن هنا ارتبط مفهوم المسؤولية في الاسلام بمفهوم الحرية بلا فكاك ، فحيث تكون الحرية تكون المسؤولية ، وحيث تنعدم الأولى تنعدم الثانية .. ولذلك كانت الحرية التي اشترعها الاسلام للانسان أروع ألوان الحريات في الأرض ، فقد توجد الحرية اللامسؤولة فيشيع في الأرض الخراب ، وفي الناس الفوضى .. وقد توجد المسؤولية اللامتحررة فتنطمس معها معالم الحركة ، وقوانين الابتكار ..

أما المسؤولية في المفهوم الاسلامي ، فهي مسؤولية (ملتزمة) .. والالتزام هنا يعني الحرية المنضبطة بقوانينها الذاتية النابعة من قوى الذات المسلمة وليس من قوى القهر الخارجي الوافدة على الذات من هنا أو من هناك ، والانسان هو الذي اختار منذ البدء أن يكون مسؤولا بكل هذا الحجم من المسؤولية ، وقد يكون قد ظلم نفسه ، وقد يكون قد كان جاهلا بنوعية ما يتصدى له ، ولكنه هكذا كان :

«**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، إنه كان ظلوماً جهولا**» (الأحزاب : ٧٢) .

من هنا ينبغي أن لا يتحلل من تبعة هذا التصدي ، ولا يهرب من قدر هذا الشموخ ، ولا يتأذى حتى للحظة واحدة من إناطة مسؤوليته به ، فان كل موجود يحمل دوراً في الوجود ليؤديه كما يطيق

«**وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا**» (الاسراء : ١٣)

إن الانسان هنا مسؤول عن رحلة حلوله في التاريخ ، وهو مطالب بمقتضى هذه المسؤولية أن يكون يقظ الحس والنفس ، شريف الوسيلة والغاية ، إيماني المنطلق والقرار .. لأنه وحيداً سيبعث ، ووحيداً كذلك سيواجه بكل ما قدمت يداه ،إن خيراً فخير . وإن شراً فشر ، يقول القرآن الكريم :

«**وان ليس للانسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى**» (النجم : ٣٩ ـ ٤١) .

فيضع بذلك للوجود الانساني من جهة ، وللكدح الانساني من جهة أخرى ، مبادىء المسؤولية والالتزام . لأن سعي الانسان على الأرض هو مبرر وجوده على الأرض ، كما أن هذا السعي مقدور ومنظور اليه من زوايا متعددة ، فهو سعي ذاتي وجماعي معاً ، وهو سعي مادي ومعنوي جميعاً .. ثم هو في كفة العدالة مواجه بجزائه الأوفى ، الذي يجعل من قضية السعي مجرد تدليل انساني على أهلية الخلافة في الأرض والحلول في التاريخ ، فاذا دلل الانسان على احتوائه هذا المعنى ، ومارس دوره الفاعل بلا قصور ، كانت ثمرة ذلك ليس مجرد الجزاء الموازي لقيمة العمل ، وانما الجزاء الأوفى ، الذي يجعل من قضية الكدح الحياتي ذرة ضائعة في خضم الفيض الالهي العظيم .. وبهذا تكون المسؤولية في المفهوم الانساني تدليلا على أهلية الانسان من جهة ، ومدخلا الى رحاب الفيض الالهي الشامل من جهة أخرى ، وما أروع أن تكون مسؤولية على هذا النحو من الفعل والاسترفاد .

الاختيار ، قدرة الانسان الفاعل :

ويأتي تصوير القرآن الكريم لحرية الاختيار الانساني تأكيداً على أصل الحرية الذى ارتبط بقيمة المسؤولية .. والاختيار يعني بالضرورة قدرة الانسان الفاعل على أن يجنح هنا أو يجنح هناك ، وإذن فهو ممتلىء بحريته الفاعلة وليس بعبوديته المنفعلة .. إلا أنه مطالب بأن يؤسس قضية اختياره على بصيرة الوعي بمصدر هذه الحرية المختارة .. فهو ذاهب فى نهاية الطريق الجانح أو المستعصم الى ربه وليس الى يباب الفراغ :

«**يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب الى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً**» (الانشقاق : ٦ ـ ١٢) .

هنا يضع القرآن الكريم القضية أمام انسانها ، ويترك له حرية اختيار طريقه ، ملوحاً له بأن تعاسته كامنة فى انحيازه الى الجانب

المظلم ، وأن سعادته كامنة في انحيازه الى الجانب المضيء .. وهو بعد ذلك حر في أن يختار لنفسه ، وأن يضع مصيره بين شقي رحى أو على ضفاف الخلود .. وبهذا يعطي القرآن للحرية مضمونها الانساني النبيل ، فهي لا يمكن أن تكون حرية انسان على حساب استعباد انسان آخر ، ثم هي حرية نظيفة تنطلق بالقضية الانسانية كلها في آفاق المعاني الشريفة العالية ، التي لا تتصادم على الأرض حقاً ، ولا تقاتل في الناس ارتفاعاً ، ولا تعطي نفسها لكل فهم وبيل يجعل منها انطلاقاً غير مسؤول في منادح الشبع الجنسي ، أو الامتلاء المادي ، أو الافتيات الاجتماعي ، أو النزق الحاكم ، أو التعصب المرور ..

الحرية التزام

إن الحرية في المفهوم الاسلامي هي أن تتعبد للقيم الفاضلة لا أن تتحلل منها ، وهي أن تلتزم بالشرف الانساني لا أن تطأه وتواصل الركض الى خرائب اللذاذات .. وهنا تأخذ الحرية وضعيتها الحقيقية في التاريخ ، فكل القيم النبيلة في تاريخ البشر محكومة بعناصر الالتزام حتى لا تجور ، تماماً كما يحكم المحيط بالشاطىء ، والكواكب بالمجرات .

وحين يضع القرآن الكريم الانسان أمام نفسه ، يهيب به أن يتأمل قضيتها بموضوعية فاهمة ، وأن يرتفع بها عن أن تصير الى هشيم ، وأن يكون العين البصيرة النافذة لسلوكها . انطلاقاً من تأمل القضية الانسانية بأسرها ، من أين ؟ والى أين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ :

«أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه . بل يريد الانسان ليفجر أمامه ، يسأل أيان يوم القيامة ، فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . الى ربك يومئذ المستقر . ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الانسان على نفسه بصيرة» (القيامة : ٣ ــ ١٤) .

إن قيام الانسان على نفسه ، وبصره بمواطن الجموح والاسراف فيها ، وكبحه لهذه المواطن ، هو المدخل الطبيعي الى تعلية هذه النفس وتكريمها فلا تهان .. إن مداها التي تحسن التحليق في فضائه ينبغي أن لا يتجاوز اقتدارها الحقيقي ، لأن في التطوح بها في مجاهل الغرور دمارها الحتمي .. ومتى كان في استطاعة الذات المخلوقة أن تقيم من نفسها دياناً على خالقها ؟! إن قصارى الذات أن تتأمل قضيتها **«وفي أنفسكم أفلا تبصرون»** .. وأن ترتفع من هذا التأمل عن مراغة الجهل والانكار ، وأن لا تغلق حسها دون وافد الاعجاز الالهي المتواتر في النفس والآفاق .. فان هي فعلت كانت من اليقين على يقين جازم بكل المقاييس .

وأمام ضعفه واقتدار خالقه يقف القرآن الكريم الانسان في محاولة لتجسيد حجمه الحقيقي ولكن في مودة ظاهرة ، وتعاطف وثير :

«لقد خلقنا الانسان في كبد . أيحسب أن لن يقدر عليه أحد . يقول أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد . ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين» (البلد : ٤ ــ ١٠) .

إن الانسان هنا صنع من صنع القوة الخالقة ، وهو محكوم في هذا الاطار بحتمية كونه مرئياً ومحصوراً ومقدوراً عليه ، فليضع إذن كل أسلحته ، وليهاجر بكل ذراته الى شوق الارتماء في أحضان السماء ، لأنه بهذه الأسلحة الموهوبة ينبغي أن يتوجه بالاقرار والاعتراف الى واهبها ، لا أن يتمرد في وجه الخالق بما خلق ، أو يناوىء الواهب بهباته .. فالقضية تصبح عجزاً كاملا وتلاشياً شاملا إذا سلب الخالق خلقه ، أو استرد الواهب هباته ..

إن العين التي تحدق شزراً ، واللسان الذي ينطق هجراً ، والشفة التي تتحرك سخراً ، والعقل الذي يفكر كفراً ، تصبح بلا مضمون إذا هي سلبت قوة الفعل التي هي فيض القدرة الخالقة .. ويصبح انسانها هو الآخر بلا مضمون إذا هو سلبها وسائط النظر والتعبير والفكر ..

المؤمن القوي خير :

وليس ينبغي أن تفهم القضية هنا على مستوى أن الله يريد للانسان أن يكون ضعيفاً أو مقهوراً أو مشلول الارادة ، فالمؤمن القوي ــ في المفهوم الاسلامي ــ خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف .. ولكن القوة هنا مقيسة بالنظر الى حجم القوى البشرية الأخرى وليس بحجم القوة الخالقة ، فدون هذا الطموح يتحطم في الانسان رشاده واعتداده .. ثم ان هذه القوة البشرية اذا جاوزت قصدها المعقول كانت في النهاية محكومة بحتمية الارتطام بما لا طاقة لها به ، وفي هذا نهاية فاجعة لخلق أراده الله سوياً بلا حماقة ، نبيلا بلا نذالة ، ذكياً بلا تجديف .

كذلك ينبغي أن لا نخلط في هذه القضية بين الالتزام والالزام ، فان الله الخالق كان يستطيع بلا حدود أن يلزم الانسان المخلوق بكل ما يريده منه ، ولكنه أعطاه حرية أن يقبل ويرفض ، وامكان أن يؤمن ويكفر ، لأنه خلقه مسؤولا ، والمسؤولية نتيجة لمقدمة هي الحرية .. كما أن مجرد التوجه الى الانسان بالترهيب والتخويف والكبح يعني أن الانسان قادر على أن يندفع في طريقه بلا رهب ، وأن يلج في عصيانه بلا خوف ، وأن يتخم لذاذاته بلا كبوح .. وهذا هو جوهر الحرية .. ان الترهيب لا يتوجه أساساً إلا الى قادر على ممارسة الاعتراض والرفض .. أي الى قادر على ممارسة الحرية والاختيار ..

فاذا أعطى الخالق مخلوقه اقتدار أن يعترض ويرفض ، فان معنى ذلك أنه أعطاه حريته كاملة ، وعلى المخلوق أن يتحسس قضية كيف أنه أساء وضع هذه الحرية في غير موضعها الصوابي ، كلما ند به منطق الفتون ، أو جمح به جواد الاغترار !!

وإذن فالالتزام الانساني في القرآن من خلال دورانه حول مصطلح (الانسان) ينبع من تحديد مسؤولية هذا الانسان .. ومن حرية اختياره .. ومن وقوفه أمام نفسه .. ومن ضرورة احساسه بضعف البشري في مواجهة الالهي .. وهو من هذه الوجهة التزام عقائدي ، يبدأ من منطلق الاحساس بالآخرين ، وينتهي الى يقين الاحساس بالكون والله .